الجيوش العربية لمدة عشرة أيام بين ٩ و١٨ تموز (يوليو) ١٩٤٨ وحتى انهيار الهدنة الثانية (قبل الاخيرة) في ١٥ تشرين الاول (اكتـوبـر). وقد انتقلت القوات الاسرائيلية النظامية الى الهجوم الاستراتيجي على ثلاث جبهات: الجليل، والنقب، ومنطقة تل ـ أبيب ـ القدس. وروى موريس تفاصيل العمليات على كل جبهة، موضحاً الفروقات بين قرية وأخرى؛ اذ تعرّض البعض للتهجير الكامل، بينما نجا البعض الآخر. وفسّر ذلك، جزئياً، بطبيعة السكان وميولهم السياسية السابقة وانتماءاتهم الطائفية والمهنية، وجزئياً، أيضاً، بشخصية القادة الاسرائيليين في كل محور. الّا انه أضاف بعداً آخر، هو العامل الاستراتيجي، الذي انعكس في السعي المتعمّد الى تفريغ وسط البلاد بين تل ـ ابيب والقدس كلياً من السكان العرب، حتى لو كانوا مسالمين.

شهدت بلدتا الرملة واللد نموذج الاسلوب الاسرائيلي في تلك المرحلة، أو على الاقل في مناطق معيّنة. وقد تولّى يغئال آلون قيادة الجبهة الوسطى، وأوكلت اليه مهمة الاستيلاء على البلدتين اللتين دافعت عنهما سرية اردنية. هذا، وسبق الهجوم انسحاب القوة الاردنية الصغيرة بأوامر قائدها البريطاني غلوب باشا، وغارات برية وجوية اسرائيليـة عدة، وذلك بهدف اثارة الرعب وحمل المدنيين على الهرب قبل المعركة؛ فأوصت الاوامر الاسرائيلية بـ «تسهيل هروب النساء والمسنّين والاطفال من الرملة، ويجب اعتقال الذكور [الذين في سنّ الخدمة العسكرية]» (ص ٢٠٤). وكان تعداد السكان ٥٠ الى ٧٠ ألفاً. ولم يستغرق احتلال اللد، في ١٢ تموز (يوليو)، وقتاً طويلاً، حيث سيطر ٣٠٠ ـ ٤٠٠ جندي عليها وباشروا مطاردة حفنة من المقاومين. وازاء ذلك الوضع، فزع المدنيون، ظناً منهم ان العدو ينفّذ مجزرة، واحتشدوا على الشوارع، فأطلق عليهم الاسرائيليون النار لمدة ساعتين تقريباً، ممّا أدى الى استشهاد حوالى ٢٥٠ مدنياً وجرح المئات. وسارعت القيادة الاسرائيلية الى اصدار امر طرد الناجين فوراً، وهو الامر الذي طبّقته، أيضاً، على الرملة، فزحف آلاف المدنيين شرقاً، تاركين خلفهم الممتلكات وعشرات الاطفال والمسنّين الذين قضوا جوعاً وعطشاً ومرضاً.

تقدّم هذه الحادثة المفجعة عبرة اضافية. فقد توجّه بعض الوزراء الاسرائيليين الى بن ـ غوريون في اثناء عملية اللد والرملة، معترضين على الطرد الجماعي، فناقشهم وتوصل معهم الى «حل وسط»، دون ان يكشف لهم عن انه هو نفسه الذي اصدر امر الترحيل اصلاً! ومهما كان الامر، فقد تكرّس هذا الاسلوب كسياسة عامة طبقتها القوات الاسرائيلية خلال غالبية عملياتها اللاحقة، مثلاً خلال الهدنة الثانية، اذ لم يأبه الاسرائيليون لوقف اطلاق النار، بل نفذوا هجمات واسعة نظامية على مناطق عدة، شهدت، مجدداً، الطرد الجماعي القسري. وقام سلاح الجو، في الوقت عينه، بقصف النازحين خلال سيرهم على الطرقات. وبلغ عدد الفلسطينيين المهجّرين في تلك المرحلة المؤلمة مئة ألف شخص.

تواصل الجهد الاسرائيلي لتفريغ أرض فلسطين من سكانها بوحشية متزايدة، خلال المرحلة الاخيرة من الحرب وحتى الهدنة النهائية في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر). واستمر توسيع رقعة السيطرة الاسرائيلية، عبر الاستيلاء على الشريط الساحلي الجنوبي، وتلال الخليل، وجوار القدس، والجليل الاعلى، ممّا أسفر عن تهجير مئة ألف الى ١٥٠ ألف فلسطيني اضافي. مرة أخرى، شرح موريس سير العمليات، موضحاً دور كل وحدة وقائد، ومصير قرى عديدة بالاسم. وتكفي الاشارة الى مجزرة الدوايمة في منطقة الخليل: استولت عليها الكتيبة ٨٩ في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر). وحسب قول احد أعضاء حزب مبام قامت «بقتل ٨٠ ـ ١١٠ عرب، نساء وأطفالاً. الاطفـال قتلوا باسلوب كسر رؤوسهم بالعصي... وامـر احد القادة مهندساً ان يضع امرأتين في داخل منزل معيّن... ثم ينسفه على رأسيهما... قام أحد الجنود باغتصاب امرأة، ثم بقتلها» (ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣). ولحقت ذلك جرائم اخرى: مثلاً تكبيل ٥٢ رجلاً في صفصاف واسقاطهم في بئر قبل قتلهم رمياً بالرصاص؛ واغتصاب ثلاثة نسـاء وقتل أربع؛ حشر ٩٤ شخصاً داخل منزل في سعسع ونسفه. ودفعت الاجراءات الاسرائيلية، من قتل وتهجير ونسف، بعض الاسرائيليين الى تشبيهها بالجرائم النازية؛ الّا ان بن ـ غوريون نجح في احتوائهم، عبر اصدار أوامر بفرض القيود على الوحدات العسكرية لمنعها من التصرّف بدون أوامر منه.

ادى انتهـاء القتـال الرسمي بين الجيـوش العربية والقوات الاسرائيلية الى افتتاح مرحلة جديدة، هي